المنهج السيميائي: اتجاهاته وخصائصه

الأستاذ : علي زغينة
قسم الأدب العربي
كلية الآداب والعلوم الاجتماعية
جامعة محمد خيضر بسكرة

مقدمة

يسرني المساهمة بمداخلتي هذه في هذا الملتقى الحافل بضروب الفكر والنشاط الفياض، شاكرا للجميع- أساتذة و طلبة- مساهمتهم في إثراء محاور الملتقى إن بالمداخلات أو بالمناقشات و التعقيبات أو بالأسئلة و التساؤلات.

و لعل المداخلة أن تكون - في جوهرها- موجهة إلى طلبتنا الأعزاء أكثر مما هي بالنسبة للأساتذة الكرام، و ذلك لاكتفائها بالاشارة إلى المنهج السيميائي آخذة بالاعتبار مداخلات العام الماضي في هذا الشأن، مرورا باتجاهات المنهج ، وانتهاء بخصائصه. وبعد:

فالسيميائيات هي العلم الذي يدرس الدلائل، و لقد نشأ كعلم مستقل مع بداية القرن العشرين. وقد كانت نشأتها في أحضان اللسانيات و نظرية المعرفة، و قد عمد هذان المجالان المعرفيان إلى ربط هذا العلم بنظرية الانساق[1].

و يعتبر سوسير مع (بيرس) الواضع الأول للسيميولوجيا، و قد عرّفها باعتبارها (العلم الذي يدرس حياة الدلائل داخل الحياة الاجتماعية[2] ومن ثم فالسيميولوجيا sémiologie هي علم العلامة[3].

ولم يكن حديث دي سوسير مرتبطا بالزمن الحاضر، بل بالزمن المستقبل، فكان مجرد تصور عام مما يستشف منه أنّ تأسيس هذا العلم العام للدلائل و العلامات مايزال يحتاج إلى عدة مقاربات، و لا يقبل أن يختزل في مقاربة واحدة[4].

و لكن بأية علامة يتعلق الأمر؟

يتعلق الأمر بالعلامات التي تكون الارساليات الأساسية للتواصل الانساني كيفما كانت مكونات هذه الارساليات، سمعية، بصرية سمعية، سمعية بصرية، شمية، حركية...الخ[5].

وبموازاة النص السوسيري جاء بيرس بمقاربة مختلفة لما سماه السيميوطيقا المشبعة بالمنطق ذي القيم المتعددة، مقاربة توسع من مفهوم الدليل ليستوعب مختلف الظواهر ككيفيات و موجودات و ضروريات[6].

و بذلك يمكن القول إن الخلاف بين سوسير و بيرس يعتبر خلافا مركزيا، فقد انعكس على أتباعهما، هذا الصراع الذي حدده جورج مونان (كمواجهة بين أنصار سيميائيات التواصل، و سيميائيات المعنى[7].

المنهج السيميائى و اتجاهاته:

الحقيقة أن السيميائيات كمنهج لدراسة الدلائل تقوم على دراسة كل ماهو سيميائي simiosis الذي يعتبر الخاصية الأساسية في دراسة الدليل. و هنا يجب التمييز بين مصطلح simiosis و الدليل، أن simiosis حسب بيرس هي (سيرورة أو شيء يقوم مقام الدليل، أي كمدلول، و هذه السيرورة تتكون بالضرورة من ثلاثة عناصر ،هناك التمثيل Repésentamen الذي هو المفهوم الأول في العلاقة الثلاثية. أما الثاني في هذه العلاقة فيسمى بالموضوع L'objet، و الثالث المؤول L'interprétant).

و بعبارة أوضح فإن الدليل يحدد شيئا آخر، (مؤول) من أجل الإحالة على الموضوع الذي بدوره يحيل و يؤول كدليل آخر. وهكذا الى ما لا نهاية.

لقد رأى جاك ديريدا في هذا التقسيم للدليل عند بيرس خطوة نظرية بالمقارنة مع ما قام به سوسور عند تعريفه للدليل اللغوي الذي يقوم على تصور مركزي[8]

إن موضوع السيميوطيقا عند بيرس هو الدلائل أو النسق السيميوطيقي بما هو نسق ترميزي يتحقق بواسطته التواصل، و ليس موضوعها الأشخاص الشارحين، لأن في ذلك تركيزا على غير النسق السيميوطيقي[9].

و إذا كان الاتجاه السوسيري قد كتب له الانتشار الواسع بحكم انتشار اللسانيات، فان عمل بيرس ظل مجهولا لفترة طويلة و لم ينتشرإلا في وسط محدود من الباحثين.ولقد نشأ عن الاتجاه السوسيري اتجاهان متعارضان انبنيا على تأويل مختلف لدورة الكلام السوسيرية.

الاتجاه الأول:

يخص كلاً من بريطو و مونان و مارتيني وبويسنس... و يقوم على أن وظيفة اللسان الأساسية هي التواصل. و من ثم فإن (العلامات اللسانية تنقسم إلى صنفين كبيرين: علامات الكلام، و علامات الكتابة)[10].

و لاتختص هذه الوظيفة بالألسنة، وإنما توجد أيضا في السننيات السيميوطيقية التي تشكلها الأنواع السنية غير اللسانية[11] حيث إن (أنظمة التواصل و التعبير تتكاثر في مجتمعاتنا (وبالخصوص على أشكال أيقونية. بدءا بمجالات التواصل الأقل استعمالا (العملية، المدروسة) من طرف الإنسان، العلامات الشمية، اللمسية، والعلامات الذوقية، و انتهاء بالمجالات الأكثر استعمالا:العلامات السمعية، البصرية، والأيقونية iconiques [12] غير أن هذا التواصل مشروط بالقصدية وإرادة المتكلم في التأثير على الغير، إذ لايمكن للدليل أن يكون أداة التواصلية القصدية ما لم تشترط القصدية التواصلية الواعية.

و بذلك انحصر موضوع السيميولوجيا في الدلائل القائمة على الاعتباطية، أي العلامات لأن الدلائل الأخرى ليست سوى تمظهرات. بسيطة.

و يعني ذلك أن تحديد معنى تعبير معين رهين بتعيين مقاصد المتكلمين و الكشف عنها. وبذلك تكون تلك المقاصد ملمحا مميزا[13] اعتبارا من أن (النقد الذي يتوجه إلى المؤلف هو ذلك النوع من التأويل الذي يؤثر دور المؤلف في النص و يريد استرجاع نية المؤلف كمفتاح لمعنى النص)

و أبرز دعاة هذا المنهج هو ا. د. هيرش الذي طرح قضيته بقوة و بلاغة في كتابيه (المصداقية في التأويل) و (أهداف التأويل). فقد رأى هيرش أننا لايمكننا أن نتحدث عن تأويل محدد ما لم نفترض سلفا قصدا للمؤلف يوجه ذلك التأويل.

و في الحقيقة فان منهج هيرش هو أكبر الطرق محافظة للوصول الى معنى النص،فهو يفترض أن مؤلف النص الأدبي هو تحديدا أفضل من القارئ، و أن إنجازه مساوٍ لما كان ينوي أن ينجزه [14]

و هكذا، فبمثل هذه الطريقة يبعد أنصار سيميولوجيا التواصل ذلك النوع من السيميولوجيا الذي يدرس البنيات السيميوطيقية التي تؤدي و ظائف غير وظيفة التواصل المعتمد على القصدية، لأن هذه السيميولوجية ستلتبس بعلوم الإنسان.[15]

الاتجاه الثاني:

يعارض الاتجاه الأول، و يناصر سيميولوجيا الدلالة، و من ممثلي هذا الاتجاه (رولان بارت) حيث يسجل أن اللغة لا تستنفد كل إمكانيات التواصل، فنحن نتواصل سواء توفّرت القصدية أم لم تتوفّر، بكل الأشياء الطبيعية والثقافية سواء كانت اعتباطية أم غير اعتباطية، لكن المعاني التي تسند إلى هاته الأشياء الدالة ما كان لها أن تحصل دون توسط اللغة، إذ إن تفكيك ترميزية الأشياء يتم بالضرورة بواسطة اللغة باعتبارها النسق الذي يقطع العالم و ينتج المعاني، و لهذا السبب كانت المعرفة السيميولوجية قائمة على المعرفة اللسانية[16]

و يتضح مما سبق ألا معنى للفصل بين التواصل و الدلالة، و أن اللغة في حقيقة أمرها تتمفصل حولهما معا، فالبحث في الأنساق الدالّة بحث في الدلالات التي يتم توصيلها إلى الإنسان بشكل واعٍ أو بشكل غير واعٍ[17]

و لعله يمكننا الملاحظة أن نظرية التواصل- عند البنيويين- قد قامت (بقتل الإنسان واستبداله بالنسق)[18]

وإذا كان أنصار سيميولوجيا التواصل يرون في الدليل الدال و المدلول و القصد، فإن أنصار سيميولوجيا الدلالة لا يرون في الدليل غير الدال و المدلول، حيث (الدلالة تتكون في الوقت الذي ننسى العلاقة بين شكل التعبير و دلالة التعبير لكي لا نهتم إلاّ بالأخير.إذن الدلالة لا تهتم بعدد من المجالات منها أنظمة التواصل غير اللسانية، وبدون شك لهذا السبب حددت الدلالة عملها في التحليل البنيوي للنصوص[19]

الاتجاه الثالث:

و غير بعيد عن الاتجاهين المتفرعين (أي سيميولوجيا التواصل، وسيميولوجيا الدلالة)، و عن الاتجاهين الأصليين (اتجاه سوسيرو اتجاه بيرس) ظهر اتجاه سيميولوجيا الثقافة، و هو يستفيد من الفلسفة الماركسية و من فلسفة الأشكال الرمزية لكاسيرر خاصة في كل من

روسيا (يوري لوتمان وإيفانوف، وأوسبانسكي، وطوبوروف...) وإيطاليا (روسي، لاندي، وامبرتوايكو..)[20]

وعن طريق الجمع بين اللسانيات و علم النفس و الماركسية تحاول الدارسة البلغارية أن تتجاوز السيميائية البنيوية، فالسيمانااليزا أو السيميائيات التحليلية sémanalyse (حسب تعريف و تعبير كريستيفا) تسعى إلى البحث عما تسميه بالإنتاجية النصية la production textuelle ، فالمنتوج عند ماركس هو الإمكانية التي تميّز الأفراد عن الحيوانات، و هو الذي يحدد شروط وجودهم و تاريخهم و بالأخص معرفتهم و طريقة تفكيرهم.[21]

وهكذا فان (السيميائيات التحليلية في محاولتها للبحث عن الإتاجية، تريد بذلك أن تتجاوز سيميائيات التواصل بالرغم من تأكيدها على (الأهمية النظرية التي قدمتها في ردها الاعتبار لمادة النص الأدبي.)[22]

و نعود إلى سيميولوجيا الثقافة للإشارة إلى أنها تنطلق من اعتبار الظواهر الثقافية موضوعات تواصلية وأنساقا دلالية. و الثقافة عبارة عن إسناد وظيفة للأشياء الطبيعية وتسميتها و تذكرها، وهي بذلك تكون مجالا لتنظيم الأخبار في المجتمع الإنساني، إذ ترسخ التجارب السابقة و تلعب دور البرنامج و تشتغل كتعليمات[23]

واعتبارا من أن حصيلة عمل الإنسان تكمن في سلوكات لها معان، و السلوكات ليست سوى إنجاز لبرامج معينة، فعليه تكون الثقافة برامج و تعليمات تتحكم في سلوك الإنسان. و يكون السلوك الإنساني تواصلا، لأن التواصل لا يتحقق إلاّ بالاعتماد على بنية سلوكية إنسانية.

إن إدراك الإنسان للعالم إدراك تبرمجه الثقافة بواسطة أنساقها الدالة اللفظية أو غير اللفظية التي تؤطر عمل الإنسان و ممارسته الاجتماعية، وهكذا، فالثقافة نسق مكون من عدة أنساق (لغات طبيعية، و اصطناعية، و فنون، وديانات، و طقوس...) و كل نسق من هذه الأنساق ليس نسقا تواصليا فحسب، وإنما هو نسق منمذج للعالم[24]

وهكذا يصبح كل نسق ثقافي نسقا تواصليا بما أن الموضوع الثقافي قد صار المحتوى االممكن لأية عملية تواصلية، و يعني ذلك أن قوانين التواصل هي قوانين ثقافية[25]

و الحصيلة هي أن كل ظاهرة ثقافية تبدو وحدة دلالية، و أن المد لول يضحى وحدة ثقافية، و بناء على ذلك يمكن القول إن أي واقعة ثقافية تعود بالضرورة إلى السيميوطيقا.

و لعله يبدو واضحا أن السيميوطيقا التي تعنى بالثقافة ككل ترادف إلى حد ما الابستيمولوجيا، إذ هي نظرية نقد الواقع و العلم و الأيديولوجيا.[26]

السيميولوجيا و الدلالة:

يجب التفريق أولا بين مصطلحي "دلالة" و"علم العلامات sémiologie، لأننا في بعض الأحيان لا ندرك الاختلافات الموجودة بين المصطلحين إلاّ أن الاختلاف بسيط: نعلم أن" علم العلامات " يهدف إلى دراسة العلاقات بين الدالات و المدلولات .sa/se . الدلالة لا تهتم إلا بالمدلولات و دلالات اللغات و مختلف أشكال التعبير والتواصل، نظرا لأننا حينما نلمس خطابا سيميولوجيا لا يمكن أن نفعل أي شيء آخر غير أن ندمج فيه الدلالة، و لكن العكس غير ممكن. هكذا تكون الدلالة بنينت نفسها كعلم مستقل)[27]

ولأن السيميولوجيا تبحث عن الدلالة و المعنى فقد أثيرت نقاشات طالت انقسام الدلالة إلى دلالة تعيينية ودلالة ايحائية، و غياب الحدود الفاصلة بين الدلالة و المرجع. بل إنّ الدليل قد اعتبر كيانا فارغا لا وجود له في اللسان و إنّما له وجودان متميزان:

- الأول: وجود متصل بالمتكلم وكفاءته الخطابية.
- الثاني: وجود متصل بالمخاطب وكفاءته التأويلية.[28]

و فضلا عن ذلك تعترضنا المبهمات déictiques و أسماء الأعلام التي لا دلالة لها، فكيف تستقيم الدلالة في مثل هذا الوضع؟

من هنا زحف مشكل المرجع على الدراسات السيميوطيقية، فتم التمييز بينه و بين المعنى (فريج، بورس، تشارلزموريس) اذ من الممكن أن يكون المنطوق معين مرجعية واحدة ودلالات مختلفة، كما أن بعض الخطابات تدل دون أن تعين أي شيء.[29]

لذا وجب ربط الخطاب بالصدق و الكذب، أي أن إسناد معنى لجملة ما يعني تحديد الشروط التي تجعل منها جملة صادقة أو جملة كاذبة.

و الأدهى من ذلك أن المرجع قد توسع ليستوعب التجربة المعيشة ، فانفتح –كمفهوم– على البعد التداولي، هكذا إذن صارت شروط فعل القول énonciation هي المحددة للفعل المرجعي. و بذلك لم يعد الشيء كافيا على الإطلاق لتحديد المرجع.

و يبدو أن هذا الاتجاه على عكس أنصار سيميولوجيا الدلالة الذين يختزلون الدليل إلى دال و مدلول، يرى في الدليل ثلاثة مكونات هي الدال و المدلول و المرجع[30]

ويمكن اختزال هذه الاختلافات في المفاهيم الثلاث: الدال/المدلول/المرجع.

التي أثارت جدالا واسعا حولها ذلك أن هذه الثلاث قد وضعت لها تسميات مختلفة. ومن الممكن أن تعود هذه الاختلافات المصطلحية إلى اختلافات فكرية عميقة [31]

وطالما أننا في مضمار الأدب أو بصدد المنهج السيميائي في الأدب فإن (السيمياء ترفض علم التأويل الخاص بالمؤلف، من خلال نقدها لفكرة المؤلف، فالمؤلف عند الناقد السيميائي ليس إلهًا يتأمل خلقه، و لا حتى شخصية فردية موحدة تماما تضع خياراتها الجمالية كما تشاء. منتجو النصوص الأدبية هم أيضا كائنات ثقافية أحرزت رتبة الذاتية الإنسانية من خلال اللغة. و يتحقق ما ينتجونه من نصوص أدبية بقبولهم قيود المعايير النوعية أو الاستطرادية. وتتحدث من خلالهم أصوات أخرى بعضها ثقافي و عام، وبعضها يجيء مشوها بسبب تلك الجوانب من الحاجة الاجتماعية المكبوتة كثمن للحصول على ذاتية عامة في اللغة.

فالمؤلف ليس "أنا" مكتملة، بل مزيج من العناصر الخاصة و العامة، الشعورية واللاشعورية التي توحدت على نحو خاص لكي تستخدم أساسا تأويليا[32]

و الأمر نفسه فيما يتعلق بالقراء في كونهم (ذوات منقسمة تتخللها الشفرات. و ترك القارئ حرّا في التأويل أمر مستحيل، لأن القارئ (الحرّ) هو أيضا واقع تحت رحمة الشفرات الثقافية التي تشكل كل شخص بوصفه قارئا، و تحت رحمة الملامح المناورة للنص وللصف، و سياق القراءة كلها أيضا[33]

و النص أيضا– في مقابل العمل، شيء مفتوح و غير كامل وغير مكتف، و ليست هذه خاصية لصيقة بأي قطعة كتابية، بل مجرد طريقة في التعامل مع هذه القطعة الكتابية، أو أية مجموعة أخرى من الإشارات. و يمكن لنفس الكلمات أن تعدّ نصّا أو عملا. و كنص

ينبغي فهم القطعة الكتابية بوصفها نتاجا لشخص أو أشخاص، عند نقطة معينة، و في صورة معينة من الخطاب، تستمد معانيها من الإيماءات التأويلية لأفراد القراء الذين يستعملون الشفرات النحوية و الدلالية و الثقافية المتاحة لهم [34]

و مما سبق يتضح أن السيميولوجيا غير موحّدة. إذ استعملت هذه اللفظة بخصوص ممارسات متنوعة، فهي من جهة تضم تحليل قطاع تواصلي بواسطة نماذج مستمدة من اللسانيات البنيوية، و اللسانيات التحويلية، و لسانيات الخطاب، و هي من جهة ثانية ترتبط بالفلسفة الذرائعية و الكانتية الجديدة (بورس، تشارلزموريس، كاسيرر...) أو بالفلسفة الماركسية (يوري لوتمان، أمبرتوإيكو. روسي، لاندي...)[35]

وإذا كانت السيميولوجيا قد اختزلت مع البعض في اللسانيات، فإنها قد أصبحت مع البعض الآخر حصيلة تنسيق بين مجالات معرفية متعددة (فلسفة ومنطق و لسانيات، وعلم النفس، و علم الاجتماع...)[36]

خصائص النظام السيميولوجي:

إذا حاولنا أن نقدم بإيجاز خصائص النظام السيميولوجي، فإنه بصفة عامة يمكننا أن نوجزها فيما يلي:

أ- يتميز النظام السيميولوجي بالطريقة التي يؤدي بها الوظيفة، أي الطريقة التي يصل بها النظام و لاسيما الحاسة (السمع. البصر).

ب- مجال الصلاحية و هو المجال الذي يفرض النظام نفسه داخله، حيث يمكن التعرف عليه و اتباعه (نظام السلوك مثلا)

ج- طبيعة الدليل و عددها وهي مرتبطة بكيفية تأدية الوظيفة و مجال صلاحيتها.

د- نوعية التوظيف و ترجع إلى العلاقة التي تربط الدلائل و تمنح كل دليل وظيفة متميزة[37]

و كمثال على ذلك كيفية تأدية الوظيفة في نظام إشارات المرور، حيث نجدها بصرية في النظام اللغوي، و(سمعية) عندما يكون شفويا، و بصرية عندما يكون كتابيا.

أما مجال الصلاحية فهو تنقل العربات في الطريق كما هو الشأن في نظام المرور.

أما عدد و طبيعة الدليل، فهي في هذا النظام ثنائية و أحيانا يصاحب هذا التعارض مرحلة وسيطة (اللون الأصفر).

أما عن نوعية التوظيف فهي علاقة تعاقب la diachronie ، و ليست علاقة تزامن La synchronie بين اللون الأحمر و الأخضر، حيث يعني تعاقب اللون: طريق مغلق. طريق مفتوح[38]

وإلى هنا آتي على نهاية هذه المداخلة، شاكرا لكم حسن السمع و الإصغاء، و السلام عليكم و رحمة الله و بركاته.

الهوامش

1- مارسيلو، داسكال :الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة، تر: حميد لحمداني و آخرون افريقيا الشرق. الدار البيضاء .المغرب:1987 . ص 4

2- م.ن. ص 4

3- م. ن. ص4

4- م . ن . ص 5

5- محمد نظيف" ماهي السيميولوجيا. افريقيا الشرق. ط 1 . 1994 . ص 9

6- مارسيلوداسكال : الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة. ص. 5 .

7- أنورالمرتجي :سيميائية النص الأدبي: افريقيا الشرق. الدار البيضاء. 1987.ص.12

8- م.ن.ص4.

9-مارسيلو داسكال: الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة تر:حميد لحمداني وآخرون ص5

10- محمد نظيف: ماهي السيميولوجيا. ص 11.

11- مارسيلو داسكال : الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة. ص 5، 6

12- محمد نظيف: ماهي السيميولوجيا. ص 20.

13- مارسيلو داسكال : الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة. ص 6

14- روبرت شولز: السيمياء و التأويل .تر. سعيد الغانمي. المؤسسة العربية للدراسات و النشر. بيروت. ط 1. 1994 ، ص 30 ، 31

15- مارسيلو داسكال: الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة. ص 6.

16- م ن. ص 6

17- م ن.ص 6

18- أنور المرتجي : سيميائية النص الأدبي. ص 19

19- محمد نظيف: ماهي السيميولوجيا ص 20

20- مارسيلو داسكال : الاتجاهات السيميولوجيةالمعاصرة ص 7

21- أنور المرتجي: سيميائية النص الأدبي ص 15

22- م ن ص 16 ،17

23- مارسيلو داسكال: الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة. ص 7

24- م ن ص 7

25- م ن. ص 7

26- م ن. ص 7

27- محمد نظيف: ماهي السيميولوجيا. ص 19

28- مارسيلو داسكال: الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة. ص 7

29- م ن ص 7، 8

30- م ن ص. 8

31- م ن ص8

32- روبرت شولز: السيمياء و التأويل، ص 38 . 39.

33- م ن. ص 38

34- م ن . ص 39

35- مارسيلو داسكال: الاتجاهات السيميولوجية المعاصرة. ص 9

36- م ن. ص. 9

37- أنور المرتجي: سيميائية النص الأدبي. ص. 18. 19

38- م. ن. ص 390